كتب بالعربية

فلسطين وشجرة الزيتون: تاريخ من الشغف

ناصر سومي

ترجمه من الفرنسية: هيثم الأمين

بيروت: دار النهار للنشر، ٢٠١١. ١٤٤ صفحة.

حين أراد الفنان الفلسطيني ناصر سومي، الذي ولد في سِيلة الظهر في تموز / يوليو ١٩٨٤، ونزيل فرنسا منذ سنة ١٩٨٠، أن يلملم ذاكرته، صوراً وقطعاً وأشياء وحيوات، لم يجد أروع من شجرة الزيتون للكتابة عنها؛ "شجرة النور" كما تجري العبارة باللسان الفلسطيني. وهي المرادفة لبلده، الحاضرة في معيش شعبه، والمقيمة في شغاف قلوبهم، والمستقرة في وعيهم، وما الدفاع عنها أمام الجرافات الهادرة الكبيرة إلاّ دفاع عن الأرض والهوية.

يروي سومي "تاريخ شجرة الزيتون في فلسطين"، فيجدها سحيقة القِدم، فقد عثر على آثار لها تعود إلى العصر الحجري القديم (من ٣٥٠٠٠ عام إلى ١٢٠٠٠ عام) في إحدى مغاور جبل الكرمل. ومن الاكتشافات الأثرية في فلسطين يمكن البرهنة على وجود "إنسان ذي صفات عاقلة" (Homo Sapiens) في العصر الحجري القديم الوسيط (أي منذ ١٢٠٠٠عام). ومنذ الألف العاشرة قبل الميلاد ظهرت في الشرق الأدنى جماعات زراعية ورعوية سكنت المغاور وأقامت المصاطب، وهذا حال جبل الكرمل والساحل الفلسطيني.

ينقل الكاتب لنا صورة أحد المواقع الأثرية الوثيق الصلة بالمرحلة، وهو موقع ملاّحة، ففي القرن العاشر ق.م. "بنى الإنسان، لأول مرة، في الشرق الأدنى مساكنه، وكانت مثابة ملاجىء مستديرة يتراوح قطرها ما بين ٤ أمتار و٩ أمتار محفورة في الأرض، لها جدار من حجارة كبيرة على ارتفاع متر من الأرض، أو أكثر، يدعم جوانب الحفرة، وأرضها مبلطة ببلاط كبير من الصخور الكلسية. وتعد ملاّحة في كل مستوى من مستوياتها من ٢٥ إلى ٥٠ مسكناً من هذا النوع، تستوعب ما بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ نسمة"، وميزة هؤلاء السكان بحسب نمط حياتهم وإنتاجهم أنهم كانوا قادرين على إعالة أنفسهم من دون ترحل. وحدث اكتشاف الخزف والفخار في الحقبة التاريخية نفسها، الأمر الذي ساهم في التقدم في مسألة حفظ الطعام وطبخه. يقول سومي إن الفخار وُجد في أريحا في طبقاتها الأثرية السفلى، ويظن عالم الآثار البريطاني جون غارستنغ، وهو أحد الباحثين، أن الفخار اكتُشف فيها.

فلسطين تدجّن شجرة الزيتون

يتخيل الدارسون أن المجتمعات البشرية انتقلت من الجمع والقطف والصيد إلى الزراعة ضمن مسار تطوري له علاقة بأدوات العمل والديموغرافيا والترحل من مناطق إلى أُخرى، مرجحين الأسباب المناخية. ويعتقد الباحث، استناداً إلى الدراسات، أن أوضاعاً مواتية، في أوائل الألف الخامسة ق.م.، سمحت بتدجين الكرمة وشجرة الزيتون، ولا سيما أن المناخ في فلسطين (وسورية بصورة عامة) ملائم لزرعهما. فالنور الذي يتطلبه الزيتون متوفر في هذا البلد، وشجره يقاوم الجفاف ويتحمل البرد، كما أن الزيتون "شجر قليل التطلب". وقد زُرع في فلسطين في نوعين من الأرض: الحمراء والكلسية. ويُقدِّر سومي أن الظروف المناخية تُعلل اعتبار "فلسطين بيت شجرة الزيتون".

والكاتب يتتبع "أصل شجرة الزيتون"، فينسبها إلى فصيلة العُتم، كالدردار والطروان والليلك والياسمين، وتُعدّ ثلاثين نوعاً مختلفاً، الرئيسي منها "أوليا أوروبايا" (Oleà Europea)، وقريبتها البرية التي تُدعى "أوليا أوروبايا سلفستري" (Oleà Europea Sylvestrie) (أي زيتونة الغابات)، وهي تنبت في فلسطين ويُطلق عليها لقب "الذكر"، وما يزرعونه يلقّبونه بـ"الحلوة". ويلجأ المزارعون الفلسطينيون إلى تزويج "الذكر" و"الحلوة" للحصول على شجرة قوية مُقاومة.

وقاد اكتشاف آثار الجران والمعاصر قرب حيفا، إلى الحدس بأن تدجين شجرة الزيتون والاستفادة منها يعودان إلى الألف الخامسة ق. م. كما أسلفنا. وعُثر في شرقي مدينة الرملة أيضاً على فجوات في الصخر استُخدمت لعصر العنب والزيتون. ودفع الوضع الحضاري في الألف الرابعة ق. م. القائم في مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين، بفلسطين (بلاد كنعان) إلى النماء والازدهار، وإلى إقامة تبادل تجاري مع الجيران، ولا سيما تصدير الخمر والزيت إلى مصر (لاستخدامه في التحنيط) في جرار خاصة تسمى "أبيدوس" تميزت بالبساطة والرشاقة وتعدّد الأشكال المزينة باللون الأحمر. ويروي سومي طرفة عن وصية سنوحي، الموظف في الإدارة المصرية الذي هرب إلى بلاد كنعان، إذ إنه لمّا عاد إلى مسقط رأسه، قال لابنه البكر "دع الرمل لسكانه وزيت الشجر لمَن لا يعرفون أفضل منه للتدليك."

حين تُفتقد الروايات الموثوق بها، تأتي الأساطير كي تضفي هالة على الوقائع والحوادث. واليونان أحسن مَن عبّر عن عالم الأشياء والنبات والحيوان، فعندهم أن "هرقل غرس عصاه في الأرض فتحولت إلى شجرة زيتون زاهية، فجدل أغصانها تاجاً يتوج به رأس الرابحين"، وهم شجعوا زراعة الزيتون في فلسطين، ويعزو إليهم الرحالة العربي ابن الفقيه (القرن العاشر الميلادي) أصل زراعته في تللك الأصقاع. وحين وقعت هذه تحت حكم الرومان تابعوا الاهتمام بالزراعة، وخصوصاً الكرمة والزيتون، وازدهرت تجارتهما بفضل تقنيات الري وإقامة السدود والتخصيب. ويتحدث المؤرخ "أميانوس" عن "أن فلسطين بلد يمتلك العديد من المزارع المتقنة."

وفي العهد البيزنطي

كثرت المعاصر ذات اللولب، وازدهرت تجارة الزيت التي كانت بيد التجار السوريين واليونان، وكان "جنود الجيش البيزنطي يتلقون أجورهم حنطة وزيت زيتون وخمراً وخلاً ولحماً، أمّا الذهب والفضة فكانا يُدفعان للجنود في الوحدات المتحركة." وفي إبان العهد الإسلامي في القرن السابع الميلادي بقيت شجرة الزيتون على أبهتها، وتوسعت زراعتها إلى جنوب إسبانيا. وقد عدّها الإسلام شجرة مباركة، وطوال فترة الحكم الإسلامي كان إنتاج زيت الزيتون وفيراً ومُعداً للتصدير. وزاد الطلب عليه بعد "أن أُفتي بإلزام الإضاءة به في المساجد"، وفرضت كثرة الإنتاج ابتداع طرائق جديدة للتخزين.

وعلى الرغم من تغيّر الحكام والعهود والسادة في فلسطين، فإن الفلاحة بقيت بيد السكان الأصليين الذين فقدوا الملكية وكانوا مورداً للضرائب، لكنهم حافظوا على نمط زراعتهم. وعلى هذا المنوال كان الوضع مع الصليبيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وهؤلاء الأخيرون اقتلعوا شجر الزيتون بسبب حاجتهم إلى الفحم. ويروي "شيشستر"، أحد الإنجليز الذين زاروا غزة في سنة ١٨٤٨، أن الجيش العثماني اقتلع ٩٥٪ من أشجار الزيتون في معظم المناطق في سورية وفلسطين.

وبعد أن تقسمت الامبراطورية العثمانية بفعل اتفاقية سايكس بيكو في سنة ١٩١٦، كانت فلسطين من نصيب الإنجليز، فوقعت تحت سلطة "الإنتداب البريطاني" (١٩٢٠ – ١٩٤٨) الذي شجّع اليهود وحالفهم لاحتلالها وتدمير القرى الفلسطينية (نحو ٤٨٠ قرية) وتهجير سكانها. فصودرت الأراضي المزروعة، وينقل سومي إحصاء يقول إنه في سنة ١٩٥٠ صودر نحو ١٣٧٠٠٠ دونم زيتون في الدولة اليهودية الجديدة، وقد قطع الإسرائيليون منها ٣٠٠٠٠ دونم واستبدلوها بزراعات أُخرى. ويُقدِر أن ٧٣٪ من مالكي الزيتون هم من الفلسطينيين الصامدين في أرضهم بعد حرب ١٩٤٨، وينتجون نحو ٧٠٠٠ طن من الزيت سنوياً.

وتبدّى إصرار أهل فلسطين بعد الاحتلال على التمسك بأرضهم في المثابرة على زرع شجر الزيتون. فعلى سبيل المثال، وعلى الرغم من ضيق مساحة غزة (٣٧٠ كيلومتر مربع) وما قطعه العثمانيون من الشجر، فإنه بقي فيها نحو ١١٠٠٠ دونم. وفي الضفة الغربية (مساحتها ٥٨٠٠ كيلومتر مربع بما فيها القدس الشرقية) بلغ حجم زراعته ٨٨١٠٠٠ دونم. ويُمثل زيت الزيتون، بحسب الدراسات، نحو ١٥٪ من الاقتصاد الزراعي، قسم مُعدّ للاستهلاك الداخلي والفائض منه للتصدير إلى الأردن والخليج وبعض الدول الأوروبية كإيطاليا وفرنسا وسويسرا وبريطانيا وبلجيكا، وأيضاً الولايات المتحدة الأميركية. وبسبب أوضاع التخزين والنقل والعصر الحديثة التي ربما تُقلّل من جودة الزيت، إذ كان قديماً يتم في المعاصر الحجرية ويُحفظ في الخوابي وفقاً للمثل الشعبي الفلسطيني: "من الشجر إلى الحجر"، فإن المزارعين الفلسطينيين يجهدون "لاستعادة الجودة التي اشتُهر بها الزيت الفلسطيني من آلاف السنين"، بمساعدة من الجمعيات الأهلية والمنظمات غير الحكومية. وبحسب الخبير الفرنسي، جان

ماري بلدزاري، فإن الزيوت الفلسطينية "تتميز بنكهات خفيفة نتذوقها مختلطة في أول الأمر، ثم ما يلبث أن يتحول التذوق تدريجياً من نكهات حمضية خفيفة في أول الفم فنكهة قشر الجوز فاللوز الأخضر، إلى أن يصبح لها في آخر الفم مذاق البهار. وتبقى جميع هذه النكهات ثابتة لمدة طويلة. كذلك فإن فيها مرارة خفيفة. أمّا الحدّة، فلا أثر لها تقريباً."

حضارة الزيتون

كما للأنهار أثرها في حياة الشعوب وحضارتها، كذلك للشجر، ولا سيما الزيتون الذي شكّل عماد حياة الفلسطينيين، ودفع سومي إلى الكلام عن "حضارة الزيتون"، وهذا الأخير متغلغل في عيشهم اليومي غذاء ودواء، إلى حد استخدامه بكثرة في أقوالهم الشعبية، نظير: "الزيت عماد البيت"، "إن لسَّن الزيتون بشباط حضروا له البطاط"، "إن لسَّن الزيتون بآذار هيأوا له الزيار" (مفردها زير وهي نوع من الجرار، وذلك لأن الموسم واعد)، "إن أخرج الزيتون بنيسان حضروا له الفنجان" (دليل موسم قطاف سيء)، و"حنطة وزيت: أسدين بالبيت"، "كول زيت وهدّ الحيط". وموسم قطاف الزيتون عيد عند الأسرة ويعكس التضامن العائلي وحسن التنظيم، ويرافقه جو من الفرح والغناء. هذا ويُنسب إلى بعض القرى الفلسطينية أنواع من الزيت الفاخر مثل قرية نبالا قرب مدينة اللد (دمّرها الجيش اليهودي في سنة ١٩٤٨).

وفي الواقع، فإن زيت الزيتون موجود في الشعائر المتوارثة منذ أيام الكنعانيين، إذ ما إن يولد الطفل "حتى يُمسد بزيت الزيتون، بحسب التقاليد القديمة، بالزيت والملح، ثم بالزيت والحبق المفروم"، وفي الأساطير السائدة في الشرق أن سكب الزيت على الرأس هو علامة فرح، ووفرة الزيت مُعادل لانبعاث البعل وللخصب. ولشخصية الخضر (أو القديس مار جرجس) في المعتقد الشعبي سِمات البعل نفسها، ويحظى بشعبية كبيرة عند الفلسطينيين، مسلمين ومسيحيين، ولا تزال "صلاة الزيت" تُقام في مقاماته وكنائسه يوم الأربعاء الذي يسبق "خميس الأسرار". واقترنت شجرة الزيتون في وعي الفلسطينيين بالأنبياء والقديسين، ويشهد على ذلك جبل الزيتون في القدس، اذ يُظن أن الشجرات تعود إلى عهد السيد المسيح. وفي باحة المسجد الأقصى زيتونة مقدسة يعتقد المسلمون أنها نبتت من بذرة رماها النبي محمد حين زار القدس في يوم المعراج. وفضلاً عن ذلك، ثمة ظن لدى الفلسطينيين بالقدرة الشفائية للزيت، إلى تقديمه نذوراً إلى المقامات أيضاً، كما هي الحال مع مقام "ستنا بدرية"، الواقع في قرية شرفات إلى الغرب من القدس، والذي تتوجه اليه النساء بالدعاء طلباً لعودة أبنائهن المهاجرين إلى الأميركيتين، بالقول: "يا ستنا البدرية! نذراً علي جرة زيت لو رجع ابني في أميركا سالم عالبيت"، ولا يزال التداوي بالزيت شائعاً لدى عامة الناس، علاوة على عادة إضاءة الكنائس والمساجد بزيت الزيتون المحضّر بحسب الطريقة التقليدية القديمة. وقد حافظ الفلاحون الفلسطينيون على نمط حياة موروث من العصور القديمة، الأمر الذي لاحظه عالم الآثار، وليام أولبرايت، الذي عاش وعمل في فلسطين في أربعينيات القرن العشرين،

فقال: "إن حياة الفلسطينيين في تلك الفترة ظلت شديدة الشبه بحياة الكنعانيين"، ثم أتى الاحتلال الإسرائيلي للأرض "ليقضي على نمط الحياة الوادع هذا."

الزيتون الفلسطيني، وإن تنوّع، إلاّ إنه في معظمه من النوع النبالي (نحو ٩٠٪)، وتسترشد زراعته والعناية به بالتراث الشعبي، حصيلة سنين الخبرة والتجربة، مثل: "أبعد أختي عني وخود ثمرها مني"، أي ضرورة وجود مسافة بين الشجرة والأُخرى، والتقليم أيضاً حاجة حيوية: "قنبني ولا تكربني (أي الحرث)"، و"العشاب غلب الكراب"، أي أن اقتلاع الأعشاب الضارة أهم من الحراثة، وينصح مثل آخر: "التين إقطع واطيه والزيتون إقطع عاليه"، وبنتيجة الاقتداء بالنصائح يحصل الفلاح الفلسطيني على أجود أنواع الزيت، ويفاخر به أنه "صاف كعين البومة". ولحفظ الموروث وإحيائه يحصي سومي الوسائل القديمة في استخراج الزيتون وهي ثلاث: "البدورية" و"زيت طفاح" و"البد".

وإلى الاستهلاك المنزلي وإضاءة المقامات، يُستخدم الزيت في إنتاج الصابون (الغاسول في اللغة العربية)، وتحتل مدينة نابلس المقام الأول في عدد المصابن، إذ إن "المنطقة المحيطة بها الأكثف بزراعة الزيتون". وينقل الباحث عن المؤرخ العربي الدمشقي (١٣٠٠م) وصفه نابلس: "قد أحظاها الله بالزيتون وزيته الذي يُصدّر إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، فيأتي منه إلى الجامع الأموي وحده ألف قنطار. ويُصنع في نابلس صابون فاخر يُصدّر إلى البلاد المذكورة آنفاً، وإلى جزر بحر الروم." وقد تغنت الشاعرة فدوى طوقان بمدينتها نابلس: "طوق جميل من الأتفاق زينه / وما الصناعة إلاّ محض اتقان/ صابونها لكن ولا عجب/ يزينه من كمال الصنع طوقانِ". وشهرة الصابون النابلسي دفعت الاحتلال إلى الإقرار بذلك ومحاولة الاستفادة تجارياً من الأمر. ولأن البركة كاملة في شجر الزيتون، فقد استغل الحرفيون الفلسطينيون خشبه لصنع أجمل المنحوتات.

كما حضرت شجرة الزيتون في بعض أعمال الشعراء والأدباء رديفاً للهوية الفلسطينية، فكتب لها محمود درويش: "لو يذكر الزيتون غارسه / لصار الزيت دمعاً!/ يا حكمة الأجداد / لو من لحمنا نعطيك درعاً! / لكن سهل الريح، / لا يُعطي عبيد الريح زرعاً! / إنا سنقلع بالرموش / الشوك والأحزان... قلعاً! / وإلام نحمل عارنا وصليبنا! / والكون يسعى../ سنظل في الزيتون خضرته، / وحول الأرض درعاً!!". وحبّر لها سميح القاسم: "منتصب القامة أمشي / مرفوع الهامة أمشي / في كفي قصفة زيتون/ وعلى كتفي نعشي".

يترصد سومي حضور الزيتون في المعيش الفلسطيني اليومي، بدءاً من الفطور المكوّن من الزيت والزعتر واللبنة السابحة في الزيت وصولاً إلى الأطباق التي لا يكتمل قوامها إلاّ بزيت الزيتون مثل الحمص والمتبل والشنكليش. وكثيرة هي النباتات البرية التي تُجمع وتُقلى به ولا سيّما العكّوب. ويُعدّد الباحث ويشرح كيفية تحضير بعض أنواع الطعام المحتاجة إلى هذا الزيت ومنها: الفطائر والمقالي والمقلوبة والمسخّن (طبقان فلسطينيان بامتياز)، كما أن زيت الزيتون يدخل في صناعة الحلويات مثل العوامة والتويتات والمطبّق.

وبقدر شغف الفلسطيني بشجرة حياته، بقدر كره المستوطن المحتل لها، لأسباب منها قدومه من بلاد باردة لا تعرفها، وحاجة هذه الشجرة إلى العمل اليدوي التقليدي، بينما يبحث هو عن الإنتاجية السريعة بالعمل المؤلل. ويروي سومي أن نفور اليهودي من الزيتون يعود إلى ما قبل قيام دولة إسرائيل في سنة ١٩٤٨، إذ امتلك يهود فلسطين في سنة ١٩٤٥ نحو ٧٠٠ هكتار من حقول الزيتون، فاقتلعوها وزرعوا مكانها دوار الشمش والفول السوداني. ومنذ سنة ١٩٧٦ اقتُلع ما يزيد على مليون ونصف مليون شجرة، وثمة سياسة عدوانية مُتبعة تستهدف تخريب موسم قطاف الزيتون. ومن حقد الاحتلال على هذه الشجرة المباركة بات يقتلعها بالجرافات الضخمة من جذورها كي لا تنبت من جديد. ودانت منظمة العفو الدولية في أكثر من تقرير سلوك الدولة العبرية المنظم في تدمير المنازل والأراضي الزراعية الفلسطينية، وعدّته ظاهرة "مرتبطة بالسياسة الرسمية في المصادرة الكثيفة للأراضي". وتصف وثيقة صادرة عن الأمم المتحدة في تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٨، وتحمل عنوان "قطاف الزيتون في الضفة الغربية وغزة"، ممارسات الاحتلال من منع حركة وإغلاق طرقات وهجمات دورية للمستوطنين بهدف تخريب موسم قطاف الزيتون، ثم أتى الجدار العازل المرتسم كالأفعى كي يحوّل حياة الفلسطينيين في الضفة الغربية إلى جحيم، كونه يُقلص إلى نسبة ٨٦٪ من الموارد الناتجة من زراعة الزيتون، بفصله بين المزارعين وأرضهم وأسرهم.

ويُحصي الباحث في جدول عدد الأشجار المقتلعة من الأراضي الفلسطينية ما بين أيلول / سبتمبر ٢٠٠٠ وتشرين الأول / أُكتوبر ٢٠٠٨، وقد وصلت إلى ١,٦١٦,٦٤٧. وبلغت الصفاقة بالإسرائيلي حد سرقة أشجار الزيتون المُعمّرة لزرعها كشتول في المستعمرات.

ولا تنفصل قصة الزيتون عن قصة زارعها ومقلّمها ومُستخرِج زيتها، فكأن الفلسطيني وشجرة النور المباركة هذه صنوان، جذورهما مغروسة معاً في الأرض، وهما مُكرّسان لوهب الخيرات. وبعد أن نقرأ "قصة الشغف" كما يرويها سومي نفهم أن غصن الزيتون الذي حمله الزعيم الفلسطيني الراحل، ياسر عرفات (أبو عمار)، يوماً في الأمم المتحدة كان فلسطين، الرمز والإشارة إلى البلد المغتصب بغير وجه حق، والذي يستحق أبناؤه حياة كريمة تشبه كرامة شجرة الزيتون.

عفيف عثمان
باحث وكاتب لبناني